الإرهاب والمقاومة

عبد الستار قاسم

تشكل مسألة الإرهاب الآن قضية هامة وأولية على الساحة العالمية، وذلك تبعا لضغط إسرائيل والولايات المتحدة وتبعية أغلب دول العالم وعلى مقدمتها العديد من الأنظمة العربية. جعلت إسرائيل المسألة قضية حيوية على المستوى العالمي في محاولة منها لتشويه المقاومة الفلسطينية وتأليب الرأي العام العالمي، ومن ثم تبرير ما تقوم به قواتها وأجهزتها الأمنية من عدوان ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية عموما. تلتها الولايات المتحدة لتضع المسألة في صدر القضايا العالمية وذلك بعد أحداث أيلول/ 2001 وانهيار برجي التجارة العالمية في نيو يورك. تسوق أمريكا العالم الآن إلا من فئة قليلة باتجاه تعريفها للإرهاب وتأييد سياساتها وضرباتها العسكرية ضد أهداف يظن أنها تأوي أو تشجع الإرهاب.

هيمنة منطق القوة تفرض الآن على الكثير من الأمم اللهاث وراء السياسات الأمريكية وتأييدها، بل والمشاركة في الأعمال الأمريكية المتنوعة التي تقول عنها أنها تهدف إلى القضاء على الإرهاب ومنابعه وأصوله. دول كثيرة تؤيد أمريكا في حربيها ضد أفغانستان والعراق، وبعضها يشارك بقوات عسكرية؛ ودول أخرى عديدة تنحني أمام المطالب الأمريكية فتلاحق من تتهمهم أمريكا بأنهم إرهابيون وتقتلهم أو تعتقلهم وتعذبهم وتهدم بيوتهم، وتلاحق أموال الفئات والجمعيات والأشخاص والأحزاب وتفرض على بيوت المال فيها رقابة مشددة، وتغير من مناهجها الدراسية ومن طرق التربية لديها وربما تعتدي على النصوص الدينية أو تخفيها.

العصا الأمريكية غليظة، وإرادة الكثير من الأمم والأنظمة منهارة بخاصة في وطننا العربي؛ من لا يلتزم بفعل الجزرة تُشهر في وجهه العصا. تبدأ الإجراءات الأمريكية بلحن الاتهام وتتصاعد بعد ذلك نحو المقاطعة واستعمال الأمم المتحدة والحصار وضرب أهداف منتقاة، ومن ثم نحو الحرب. دول ترتجف، ولكل منها أسبابها أو مبرراتها. ولا تتردد الولايات المتحدة في استعمال الفكرة الديمقراطية وحقوق الإنسان لتغليف سياساتها وإجراءاتها، مطورة بذلك نمطا جديدا من الحكم يمكن تسميته استبدادية الديمقراطية.

تهتم هذه الورقة في البحث عن أصل تعبير الإرهاب من الناحية السياسية، وعن التعريفات المتعددة له، وأنواعه ومسبباته. وستهتم بالتفنيد والتوضيح، وكذلك التمييز بينه وبين المقاومة. لن تكون هذه الورقة كافية لتغطية مختلف التفاصيل لكنها تساهم في تشكيل مقدمة نحو دراسات أعم وأشمل.

أصل التعبير سياسيا

كلمة إرهاب موجودة في القاموس اللاتيني، لكنها لم تأخذ تعبيرا سياسيا واضحا إلا في العصر الحديث، وبالتحديد بعدما استشرى ظلم الحكام والأمراء الأوروبيين. هناك من قام ضد الظلم وقال بضرورة الثورة ضد الحكم الذي وصف بأنه إرهابي. أي أن الثوار أو المقاومين اعتبروا

الحكومات الظالمة إرهابية وأجازوا ملاحقة عناصرها وقتلهم. أي أن تعريفهم للإرهاب ارتبط بظلم تقوم به الحكومات أو الدول أو الأنظمة السائدة سواء كانت زمنية أو دينية. وقد تعزز هذا المنحى بإجراءات الثورة الفرنسية العنفية ضد معارضيها من الفرنسيين وغيرهم. اعتبر قادة الثورة أن الإرهاب ضد الناس مشروع لأنه يقود إلى توطيد قواعد الحكم ومبادئ الثورة، مما يعني الإقرار بأن الدولة تمارس الإرهاب وتقترف الجرائم بحق الشعب. ومن المعروف أن آلاف الناس قد قُصلت رؤوسهم باسم المصلحة العليا والمبادئ السامية.

استخدم الفوضويون والعدميون الأوروبيون الإرهاب في القرن التاسع عشر ضد الحكومات من أجل التخلص من التسلط والقهر. كان تقديرهم أن الدولة تمثل القهر والظلم والاستغلال، وأن الفرد لا يمكن أن يحقق حريته إلا بالتخلص من هذه الآفة؛ واعتبروا الإرهاب الذي يؤدي إلى التخلص من السلطة ورموزها وسيلة مشروعة نحو الحرية. استخدم هؤلاء المتفجرات بصورة مكثفة لإحداث أكبر الخسائر في النفوس.

تدرج المفهوم ليشير بصورة واضحة إلى الدولة المستبدة التي تحرم الناس حرياتهم. الدولة راعية المصالح الرأسمالية، كما قال بعضهم في أوروبا، إنما تستخدم وسائل العنف والقهر من أجل تسهيل استغلال الفقراء والضعفاء. أركان الدولة يفتحون المجال للاستغلال وذلك من أجل مصالحهم الخاصة. وكما قال ماركس، سيؤدي هذا إلى ثورة تختفي معها الرأسمالية والمستغلين. وقد وصف أكثر من طرف أوروبي هتلر بأنه إرهابي يسعى إلى ترويع العالم والسيطرة عليه. أما بريطانيا فاستخدمت المصطلح لوصف العصابات اليهودية التي ثارت ضدها في فلسطين واستخدمت السلاح ضد جنودها.

إسلاميا، وردت مشتقات كلمة رهب في القرآن الكريم مثل فارهبون وترهبون. لكن المعنى القرآني لا يأخذ المعنى التاريخي الذي تطور في أوروبا، وإنما يحمل معنى الردع لغاية تحقيق نتيجة محمودة. المؤمن يَرهَب الله من أجل الفوز في الدنيا والآخرة، والمؤمن يُرهب العدو لمنع العدوان. أما ما يمكن أن يفيد بعض جوانب معنى الإرهاب الغربي هو مصطلح الحرابة التي تعني اقتراف جرائم ضد الآمنين غير المعتدين مثل السرقة والنهب والقتل. الحرابة أقرب ما تكون إلى الفساد والإفساد ولا يوجد لها مبرر سوى الأطماع الشخصية وإلحاق الأذى بالآخرين. لكن مصطلح الإرهاب الغربي الحالي ابتعد كثيرا في بداية القرن الحادي والعشرين عن معنى الحرابة.

تعريف الإرهاب

لا يوجد تعريف محدد وواضح ومتفق عليه للإرهاب. على الساحة العالمية، هناك تعريفات كثيرة جدا ومتنوعة بقدر تنوع المصادر والمصالح. تميل الدول الغربية في حلف شمال الأطلسي نحو تعريف خاص بها، كما كانت تميل دول حلف وارسو المنحل نحو تعريف مختلف. أمريكا لها تعاريفها، وإسرائيل لها محدداتها. أما سوريا والعراق أيام صدام حسين فكانت لهما رؤية مختلفة عن أهل الغرب. حاول كل طرف وما زال يحاول تعريف الإرهاب حسب مقاييسه واهتماماته ومصالحه. مال الغرب نحو وصف كل من يحاول زعزعة الديمقراطية الرأسمالية الغربية بأنه إرهابي، بينما رأت الدول الاشتراكية أن الدول الرأسمالية تمارس الإرهاب من خلال الاستغلال

وتطوير الترسانة العسكرية. أما إسرائيل فيسيطر على تعريفها المقاومون الفلسطينيون، في حين أن بعض الدول العربية تنطلق من منطلق الحقوق العربية السليبة.

في أمريكا هناك اختلافات في التعريف بين وزارة الدفاع ووزارة الخارجية، وحتى هناك اختلافات في التعريف بين فترة وأخرى وذلك تبعا لتطورات الأوضاع على الساحتين العالمية والداخلية. لكن بصورة عامة، تقول الولايات المتحدة أن الإرهاب عبارة عن أعمال عنف ضد مدنيين يقوم بها أشخاص أو مجموعات غير رسمية بغرض تحقيق أهداف سياسية. وتقصد أمريكا من هذا التعريف استثناء الدول بغض النظر عن الجرائم التي تقترفها بحق الشعوب والتركيز على الذين يقومون الدول. ولكي تشمل أمريكا الدول التي لا توافقها سياساتها أتت بتعبير الدول الراعية للإرهاب أو التي تؤويه. سوريا وإيران مثلا عبارة عن دولتين ترعيان أو تؤويان الإرهاب مما يبرر اتخاذ إجراءات ضدهما.

قال الاتحاد الأوروبي أن الإرهاب هو ذلك العمل الذي يؤدي إلى ترويع الناس أو إلى هدم البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية لدول أو منظمات دولية. وفي هذا ما يتساوق إلى حد بعيد مع التعريف الأمريكي.

عرفت عصبة الأمم الإرهاب على أنه فعل إجرامي ضد دولة أو دول بهدف إثارة الرعب في نفوس أشخاص معينين أو نفوس العامة. واضح أن هذا التعريف محكوم بظروف المرحلة التي سادها الكثير من الاغتيالات بحق قادة سياسيين وعسكريين. أما الأمم المتحدة فلم تنجح حتى الآن في وضع تعريف محدد وواضح للإرهاب. ذكرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في محاولاتها لصياغة تعريف الكثير من المظاهر والأعمال التي تعتبر إرهابية لكنها لم تستطع وضع تعريف يمكن اعتباره مادة قانونية يمكن الاستناد عليها. لم تستطع الأمم المتحدة القيام بذلك لأن أمريكا تقف حجر عثرة نظرا لتخوفها بأن دول العالم النامي وبالأخص الدول العربي ستصر على اعتماد تعريف يشمل الدول. هذا سيجعل من إسرائيل وأمريكا دولتين إرهابيتين.

حاولت بعض الدول العربية وعلى رأسها سوريا جمع العالم في جدل حول تعريف الإرهاب لكنها لم تنجح بسبب التعنت الأمريكي. تقول الدول العربية بأن إسرائيل دولة إرهابية من حيث أنه تشرد وتقتل وتصادر الممتلكات، الخ، ويجب أن تكون مشمولة في تعريف عالمي متفق عليه. وتقول هذا الدول أنه يجب التمييز بين أعمال الإرهاب وأعمال التحرر الوطني. إسرائيل إرهابية والمقاومة الفلسطينية مشروعة لأنها تسعى إلى استعادة الحقوق دون أن يكون العدوان في أي يوم هدفا.

لكن الغلبة تبقى في النهاية للقوة.

أرى أن التعريف العلمي للإرهاب هو استعمال القوة أو التهديد باستعمالها لإلحاق الأضرار بالآخرين لحملهم على القيام بعمل معين أو ثنيهم عن القيام بعمل وذلك لمصلحة القوة المرهبة أو أي جهة داعمة لها. أي أن الإرهاب عبارة عن قوة مباشرة أو غير مباشرة تُمارس لإيذاء الآخرين وكسر معنوياتهم وإجبارهم على قبول أمر ما أو التخلي عن أمر سواء كان سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو ثقافيا أو ممتلكات. إنه عبارة عن ممارسة مباشرة للظلم ولا يقصد إلا

سلب حقوق الآخرين. إنه إحدى الوسائل التي يستخدمها الأفراد والتنظيمات والدول بهدف الحصول على مكاسب ليست من حقهم.
يختلف الإرهاب عن المقاومة والتي هي عبارة عن رد فعل على فعل، ولولا الفعل ابتداء لما حصلت المقاومة. هذا قانون فيزيائي واجتماعي في آن واحد. لكل فعل رد فعل، وإذا غاب رد الفعل اختل القانون الطبيعي الذي هو اجتماعي أيضا. وقد ظهرت المقاومة تاريخيا وتم تعريفها سياسيا على أنها مواجهة ظالم أو ظلم وقع على شعب أو مجموعة من الناس أو أشخاص بهدف استعادة حقوق أم المحافظة على حقوق. قد تشن دولة أو مجموعة حربا على آخرين داخلا وخارجا فتسلبهم بعض حقوقهم أو تحاول ذلك، فيستنفر أصحاب الحق المستلب أو المهدد دفاعا عن أنفسهم وحقوقهم.
أقر القانون الدولي المقاومة في مواجهة المحتل أو الغازي أو الجبروت الذي يستخدم التهديد أو الوعيد. الاحتلال في القانون الدولي غير شرعي، أما المقاومة شرعية.

الواقع ونقيضه: الظلم يولد عدوه

قال أرسطو في بحر جدله السياسي منذ أكثر من ألفي عام أن الطبيعة تكره الفراغ. الإنسان جزء من الطبيعة، وبالطبيعة هو دائم الحركة، وحركته لا تسمح بالفراغ لأنها جدليا لا تتوقف. الإنسان في تفاعل مستمر مع محيطه بكافة مكوناته، ولا يتوقف عن الإبداع في أشكال وأساليب هذا التفاعل وفق تطوره الفكري الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بطريقة فهمه لواقعه. يقود التفاعل إلى مواجهة العقبات وإزاحة الموانع والسيطرة على المتغيرات، وإلى سد الثغرات أنى وجدت والانطلاق نحو تحسين ظروف الحياة على مختلف أوجهها.
يسارع الإنسان إلى ملأ الفراغ حيثما وحينما يعيه. إنه يطور مصادر غذائه إذا كان الطعام المتوفر غير كاف، ويبني بيتا إذا كان ظل الشجر لا يفي بالغرض، ويطور سلاحا إذا افتقد الأمن. ويعمل الإنسان أيضا على تطوير ما لديه ليرتقي في مستويات توفير الحاجات والاحتياجات. وفي كل الأحوال، تبقى الحركة نقيض الثبات، وهي مالئة الفراغ وصانعة التغيير والتطوير. ولهذا نقول أن الثبات نقيض الحركة، وبطبيعته يحمل نقيضه، ونقيضه هو القضاء عليه لصالح ثبات آخر لا يلبث أن يتغير ويتحول. وهكذا تبقى عجلة التاريخ بين قوة الحريص على ثباتها وقوة الراغب في دورانها. لكن الحتمية التاريخية لا بد نافذة، ولا يبقى على ما هو إلا رب العالمين.
ينطبق هذا على الأمة العربية التي تعيش فراغا تاريخيا كبيرا. يتمثل هذا الفراغ في كثير من نواحي الحياة: الأمية ما زالت واسعة الانتشار، ينتشر الجوع في بقاع واسعة من الأرض العربية، المساهمة في الحضارة العالمية والاكتشاف والاختراع تكاد تكون معدومة، التلقي من الغير يحل محل الإبداع الذاتي. لكن الأهم أن الأمة تعاني من الهزائم على مختلف الصعد، وثرواتها تُنهب وأراضيها تنتهك وأبناؤها يذبحون. واقع الأمة مرير ويتناقض مع طاقات الإنسان الإبداعية وقدراته الخلاقة، بل ينسجم مع التطويع الذاتي والخنوع والإنهاك النفسي الذي يحول المرء إلى مجرد عبد أو مطية.
للإنسان والأمم طاقة محدودة على تحمل فقدان الذات المترافق مع الذل والظلم. يطور الإنسان أو الأمة وعيا نظريا بالواقع القائم، ولا مفر من ترجمته في النهاية إلى عمل ينتقل بالجميع من واقع مرير إلى تطلعات واعدة تنطلق من الجهد الذاتي وفق رؤية مستقلة متناسبة مع واقع جديد يتميز

بالطموح. هناك من بين أبناء الأمة العربية من وصلت لديهم درجة الوعي إلى الحد الذي لا يستطيعون معه صبرا. لقد انتظروا طويلا علّ تغييرا محببا يأخذ مجراه، لكنهم رأوا أن التغيرات والتغييرات لا تتجه صعودا، وإنما تكرس التيه والضياع. وبالتالي تطورت لديهم الدافعية الكافية لحمل مستقبلهم بأيديهم بمعزل عن أصحاب السطوة والنفوذ والقرار.

لم تصل الحكومات العربية وصناع القرار حتى الآن إلى تقدير أهمية الحركة من أجل تغيير الواقع. بل أن العديد منها/منهم أصدقاء لإسرائيل والولايات المتحدة، ويساهمون في نهب ثروات الأمة وتبديدها، وتطويع الأمة للغير والإبقاء على تخلفها في مختلف الميادين إلا من ميداني الأجهزة الأمنية والبهرجة المظهرية. ولا ينس هؤلاء أن يغلفوا أعمالهم بمقولات الحكمة والعقلانية. هكذا تركوا الفراغ قائما، وتركوا الأبواب مفتوحة أمام الذين يرغبون بالتمرد على الواقع ليصنعوا ما يرون مناسبا إن استطاعوا.

الحكومات لا تستمع ولا تستقيل وتغيب، والأنظمة مستمرة بأساليبها التقليدية سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي. وبالتالي عليها ألا تفاجأ أو تغضب عندما ترى عربا قد حملوا السلاح يقاتلون ويفجرون فيهدمون ويقتلون. هذا فراغ لا مفر من ملئه، وإن لم تعمل الحكومات على سده، فسيظهر حتما من يحاول سده. أبناء الأمة مشبعون بالذل والشعور بالصغار، ولن يجدوا أمامهم إلا طريق التحدي. وبما أن التحدي السلمي يقود إلى الاعتقال والتعذيب والإجراءات القمعية من قبل الحكومات، فإن العنف يبقى سيد الخيارات.

المعنى أن الأمة العربية تتعرض للإرهاب من قوى داخلية وأخرى خارجية، ولا مفر إلا أن يكون هناك من يقاوم. بالنسبة للمتسلطين، المقاومة إرهاب، لكن هذا لن يغير من موضوعية التاريخ شيئا: الفراغ لا يدوم، ولا بد أن تتطور أعمال تزيله.

بين الإرهابيْن الرسمي وغير الرسمي

يستنفر الإعلام العربي ومعه قادة العرب على مختلف مستوياتهم عندما يقوم شخص أو مجموعة من العرب أو المسلمين بعمل عسكري ضد أهداف في الوطن العربي وضد إسرائيل مثلما حصل في الرياض والدار البيضاء وتل أبيب مؤخرا. تثور موجة هائلة من التصريحات والتعليقات والمقالات والتحليلات والتحذيرات ضد الإرهاب والإرهابيين، ويتم تصوير القائمين بهذه الأعمال على أنهم شياطين الأرض الذين يهددون الإنسانية والاستقرار العالمي والمحلي، وتعلو الدعوات لضرورة ملاحقتهم والقضاء عليهم وعلى البنى التحتية التي ينطلقون منها. وطبعا انضمت السلطة الفلسطينية إلى الجوقة.

لنتفق مع كل التحليلات التي تصدر في الإعلام حول أخطار مثل هذه الأعمال، إنما دعونا لا نترك الأمور بلا مقارنة بين هؤلاء الذين يقدمون حياتهم من أجل مسألة يؤمنون بها وبين ما يفعله القادة العرب أو الأنظمة الحاكمة بالشعوب العربية، وما تفعله إسرائيل بالشعب الفلسطينيني. إذا كان هؤلاء قد مسوا الناس من زاوية واحدة فإن الأنظمة العربية وإسرائيل قد مست العرب من زوايا متعددة وما زالت. فيما يلي أهم مواضيع المقارنة:

أولا: سلب الحريات. تمعن الأنظمة العربية منذ أن وُجدت حتى الآن في سلب حريات الناس من حيث التعبير والانتقال والرزق. حرية التعبير تكاد تكون ممنوعة لدى أغلب الأنظمة العربية، ويلقى المعارضون صنوف التنكيل والتعذيب والحرمان والملاحقة. هنا لا أتكلم عن حرية انتقاد أداء بعض المسؤولين الإداريين مثل الوزراء ومديري المؤسسات وإنما عن النظام نفسه والذي تتنوع أركانه بتنوع الدول العربية. العائلة مثلا عبارة عن النظام في بعض الدول العربية، بينما

يشكل ضباط عسكريون النظام في دول أخرى، الخ. يستطيع العربي أن ينتقد أداء أمين العاصمة لأن مواسير نقل المياه تالفة، لكنه لا يستطيع المس بما يسمى بالمقامات العليا.
تمارس بعض الجماعات العربية سواء كانت سرية أو غير سرية، مسلحة أو غير مسلحة، تؤمن بالعمل العسكري أو لا تؤمن، قمع الحريات بطرق مختلفة؛ لكن عند المقارنة نجد أن قمع الأنظمة ممتد على عشرات السنين ومتواصل وممنهج ومتطور ويزداد تجذرا وتفننا. وكيفما حاول المرء المقارنة يجد أن الأنظمة العربية أكثر إرهابا في هذا المجال من أي تنظيم أو حزب أو جماعة. عدد من الجماعات تستعمل سلاح التكفير والتشهير لإرهاب البعض فكريا، وأحيانا الأذى الجسدي لمنع الناس عن التعبير عن آرائهم، لكن الأنظمة العربية تستعمل أساليب متنوعة ومبتكرة لقمع كل الناس بحيث أنها حولت كل شخص إلى مخابرات على نفسه، ورسمت خطوطا حمراء أصبحت تعرفها كل جريدة وإذاعة ومحطة تلفاز وتقيد نفسها بها.
تجدر الإشارة هنا إلى أن الهاربين من الوطن العربي أو اللاجئين السياسيين ليسوا كذلك بسبب الإرهابيين وإنما بسبب الأنظمة العربية. وجد العديد من المفكرين والمثقفين أنهم لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم في الوطن العربي فهاجروا. أما من صمم على الصمود والبقاء في هذا الوطن فوجد السجن في انتظاره في تونس والجزائر والأردن وفلسطين وسوريا والسعودية والعراق والسودان، وإلى بقية القائمة. وتعرض أيضا للطرد من الوظيفة وسحب جواز السفر وإثبات الوجود لدى المخابرات، الخ. الإرهابيون لم يفعلوا هذا.
ثانيا: احتكار السلطة. الأنظمة العربية تحتكر السلطة ولا تسمح بتداولها، ولا تسمح للمجالس التشريعية المنتخبة أن ترسم سياسة أو أن تشارك في اتخاذ القرارات العليا. يستمر القائد العربي جاثما على صدور الناس حتى يأتيه اليقين. من هذه الزاوية، الجماعات الموصوفة بالإرهابية أكثر رقيا من الأنظمة العربية لأن أغلبها يطالب بتداول السلطة وينبذ الوراثة كأسلوب لانتقال الحكم. حسب معايير الديمقراطية، الإرهابيون أكثر ديمقراطية من الحكام العرب.

ثالثا: قتل الناس. كم قتل الإرهابيون من الناس؟ لا أعلم بالضبط، لكنني متأكد أنه لو أجري إحصاء لوجدنا أن أعداد الذين قتلتهم الأنظمة العربية من المعارضين ومن الجماهير المتظاهرة والمحتجة يفوق بشكل هائل أعداد الذين قتلهم الإرهابيون. لا يوجد نظام عربي احترم جماهير المتظاهرين إلا النظام اللبناني، أما باقي الأنظمة التي خبرت المظاهرات فقد أعملت الرصاص في صدور الناس ورؤوسهم. وهنا أشير إلى ما قاله إسرائيليون إبان الانتفاضة الفلسطينية لعام 1987 عندما رأوا قمع السلطات الجزائرية للمتظاهرين (أظن عام 1988). قالوا أن عليهم أن يستوردوا حاكما عربيا لقمع الانتفاضة الفلسطينية.
ربما يطلع علينا من يقول أن هذا المثل عن الإسرائيليين يعطي انطباعا بأن الإسرائيليين يعاملون الفلسطينيين بطريقة أقل وحشية من معاملة الحكام العرب للشعوب العربية. بهذا الكلام أنا لا أعطي انطباعا وإنما أؤكد أن الإسرائيليين أقل وحشية. الإسرائيليون يعتقلون أبناءنا ويدمرون البيوت ويهدمون ويقتلون ويذبحون، لكن لو شهد الحكام العرب من شعوبهم مقاومة لما ترددوا بحصد رقاب الناس وبطريقة تفوق ما يقوم به الإسرائيليون من أعمال إجرامية. وهنا أذكر مواجهة السلطة الفلسطينية للمتظاهرين في غزة عام 1994 حيث قتلت ثلاثة عشر شخصا وجرحت حوالي مائتين وخمسين خلال ساعتين.
تبرر الأنظمة العربية قتل الأعداد التي لا تفصح عن حقيقتها بأنها كانت تواجه الغوغائيين والزنادقة والمنشقين الذين يهددون استقرار الوطن وأمن الناس. يجد الحكام العرب لأنفسهم

مبررات لقتل الناس وذبحهم، بينما لا يجدون مبررا واحدا لشخص يصف نفسه بأنه يدافع عن حق المواطن في العيش بكرامة وأمن.

رابعا: الهزائم. حتى الآن لم يحقق الذين تصفهم الأنظمة العربية بالإرهابيين أي هزيمة للعرب والمسلمين. على العكس، هؤلاء الموصوفون بالإرهابيين هم الذين يواجهون الإسرائيليين في فلسطين وجنوب لبنان والأمريكيين في العراق وأفغانستان. الأنظمة العربية هي التي قادت الأمة إلى هزائم نكراء. هُزمت الأنظمة أمام إسرائيل مرارا وتكرارا، وقد سقط في الهزائم عشرات الألوف من الجنود العرب وسقطت الأرض وشُرد الناس ودُمرت البيوت، الخ. من المسؤول عن هذه الخسائر الهائلة وعن هذا الخزي التاريخي؟ بالتأكيد ليس تنظيم القاعدة أو الجهاد الإسلامي أو حماس أو حزب الله. دأب الحكام العرب على سوق جنودهم إلى معارك خاسرة، وعجزوا تماما عن إعداد الجيوش بالطريقة الصحيحة لملاقاة الأعداء. حتى جزيرة حنيش عجزوا عن انتزاعها من أريتيريا. وكما يبدو أن الحكام العرب رغبوا بالهزائم من أجل أن يقولوا للناس أنه لا جدوى من قتال إسرائيل وعلى العرب أن يستسلموا للإرادة الأمريكية والإسرائيلية. أي أن قتل الجنود وما تبعه من ثكالى وأرامل ويتامى كان مطلوبا على مستوى الأنظمة لبث الإحباط واليأس في نفوس الناس.

لا تتوقف المسألة عند الهزائم وإنما تمتد إلى الحروب الداخلية بين العرب. الأنظمة العربية غذت الحرب الأهلية في لبنان وخاضت صراعاتها على حساب الشعبين اللبناني والفلسطيني. الجزائر والمغرب خاضتا حربا بشأن الحدود، وما زالتا تتحاربان وتستنزفان طاقاتهما من أجل الصحراء الغربية. الشعوب تطالب بالوحدة والدولتان تقتتلان من أجل التمزيق. السعودية ومصر خاضتا حربا في اليمن، وجرى قتال بين السعودية وقطر، وبين اليمن الجنوبي والشمالي. حرب تستعر في جنوب السودان والأنظمة العربية لا تظن أن ذلك شأن لها. أما ليبيا فخاضت حربا غير معروفة الأسباب ضد تشاد. خاضت الأنظمة حروب تسلية كان القتلى فيها أبناء الفقراء والمساكين، وكان المنتصر أعداء الأمة.

الأنظمة العربية هي التي دعمت النظام العراقي في حربه مع إيران مما استنزف طاقات الأمة. خرجت كل الأطراف من تلك الحرب مهزومة وانتصر الأمريكيون والإسرائيليون. وقفت كل المنظمات التي توصف بالإرهابية ضد هذه الحرب وأصدرت البيانات والدعوات والمناشدات من أجل وقف النزيف إلا أن الأنظمة العربية مدعومة بأمريكا وإسرائيل أصرت على الاستمرار.

ماذا كان يمكن أن يكون مصير من يتخلف عن الحرب؟ في أضعف الأحوال، السجن الطويل مع التعذيب أو الأشغال الشاقة. وما هو مصير عائلات القتلى؟ غالبا التشريد، علما أن دولا عربية مثل سوريا تبنت برنامجا متطورا لرعاية أسر الشهداء.

خامسا: حكم القبائل وتبذير الأموال. يصر الحكام العرب أن قبائلهم عبارة عن هبة الله للشعوب وأن الحكم يجب أن يبقى فيهم وذراريهم إلى يوم الدين. هذا مخالف تماما لكل المعايير الإسلامية والإنسانية والديمقراطية. هذا ينطبق على من هم في الأصل قبائل وعلى الحكام الذين حولوا أنفسهم وأبناءهم إلى قبائل. يتبع هذا الاستئثار بالحكم طابورا كبيرا من الأمراء والأميرات والأشراف والشريفات والضباط والمخابرات الذين يستحوذون على المناصب الهامة في الدولة وعلى جزء كبير من أموال الأمة. قصور الحكام وأتباعهم وأقربائهم تملأ أرجاء الأرض وكذلك فضائحهم الجنسية والقمارية. هؤلاء يسرقون أموال الأمة بمختلف الطرق والوسائل ولا يستطيعون المزايدة على ما كان يفعل النظام العراقي.

التنظيمات الموصوفة بالإرهابية ضد هذا الاستغلال والاستئثار والتبذير وتدعو إلى حشد الطاقات للقضاء على أنظمة الحكم القائمة.

سادسا: الإساءة للأمة. يقول الحكام العرب ومن يساندهم أن أعمال الإرهابيين تسيء لسمعة العرب وتشوه الإسلام والمسلمين. لكن ماذا عن الحكام العرب الذين يصنعون حكايات الإثارة الجنسية والاستبداد والتبذير في بلاد العالم. تعرض وجه الأمة العربية للتشويه المستمر لما يقوم به حكام العرب من أعمال فاضحة في الغرب مثل لعب القمار أو دخول أماكن العراة أو إغداق الأموال على قطط وكلاب ترغب في الزواج، وكذلك لما يمارسونه من استبداد وبذخ في البلاد العربية. شوه العديد من الحكام ومقربيهم صورة الإسلام لما قاموا به من أعمال وثقها لهم الإعلام الغربي.

سابعا: التعاون الأمني. حقق التعاون الأمني أفضل درجات التعاون بين الأنظمة العربية وذلك فيما يختص بالمناهضين الداخليين وليس بالاعتداءات الأجنبية. تتعاون الأجهزة الأمنية العربية فيما بينها لقمع الحركات التي تحاول التأثير على أنظمة الحكم العربية، بينما تتعاون مع الأجنبي ضد بعضها. كل الدول العربية تتعاون فيما بينها ضد تنظيم القاعدة لكن عددا منها يتعاون مع إسرائيل ضد عرب آخرين. وأغلب الدول العربية تعاونت مع النظام العراقي السابق في ضرب الشيعة في الجنوب العراقي، لكنهم تعاونوا مع أمريكا ضد العراق.
التنظيمات المسماة بالإرهابية مختلفة إلى حد كبير من حيث أنها لم تحقق التعاون الأمني فيما بينها، وبعضها يقف في كثير من الأحيان ضد البعض الآخر. والأهم أن هذه التنظيمات لا تتعاون مع إسرائيل ولا مع الولايات المتحدة وترى في الدولتين عدوين لدودين يجب قتالهما. علما أن تنظيما كالقاعدة كان صديقا لأنظمة عربية ذات يوم لأنه كان على وئام مع الولايات المتحدة ومحاربا إلى جانبها في أفغانستان.
والخلاصة أن الإرهاب الرسمي العربي أكثر فحشا وكفرا وأكبر اتسعا وخطرا من إرهاب من يطلق عليهم الرسميون العرب صفة الإرهاب. فإذا كان الإرهاب شيئا مقيتا فإن الأنظمة العربية ستلاقي المزيد من المخاطر مستقبلا. السبب أن سياساتها الإرهابية ولدت الإرهاب المضاد الآخذ بالازدياد رغم كل محاولات قمعه وتحجيمه وإنهائه. وتبقى المشكلة في الإعلام الذي يبتعد كثيرا عن التغطية الموضوعية رغم ادعائه بأنه

ثامنا: إسرائيل
تستمر إسرائيل منذ عشرات السنين بإلحاق أكبر الأذى بالفلسطينيين وبكل الشعوب العربية. جرائمها كثيرة وكبيرة ومتواصلة ومتنوعة وتتكامل مع جهود الأنظمة العربية في إخضاع الأمة. يخطئ من يظن أن خيار الأمم هو الاستسلام، ويخطئ من يظن أن الغلبة ستكون لإسرائيل. الظروف التاريخية الموضوعية لا تعطي إسرائيل فرصة البقاء.

مقاومة المحتل

من الغريب على صفحات التاريخ أن تكون مسألة مقاومة الاحتلال أو الاستعمار أو أي غزو كان موضع تساؤل. هل نقاوم أم لا نقاوم؟ المعروف تاريخيا أن الشعوب أو المجتمعات التي تتعرض

إلى هيمنة أجنبية أو تشريد من أي نوع كان تنهض وتحاول أن تسترد حقوقها بمقاومة العدو التي تتعدد أشكالها. هناك شعوب ومجتمعات لم تقاوم وفضلت الاستكانة فكان مصيرها الانقراض أو الذوبان في مجتمعات أكثر قوة، أو الغياب بصورة أو بأخرى، وهناك مجتمعات استكانت تبعا لظروف معينة مثل الهنود الحمر. لكن النمط الذي ساد تاريخيا لدى الشعوب التي أصرت على التحرر واسترداد الحقوق كان المقاومة بكافة أشكالها.

لا أجد في صفحات التاريخ أمة استردت حقوقها أو طردت المستعمر من خلال الحوار الذي يطلق عليه صفتي العقلانية والحكمة. لا مفر من الحوار لكنه كان باستمرار مترافقا مع وسيلة أخرى تقنع القوة الغاشمة أن فشل الحوار ثمنه كبير. هناك دول حصلت على استقلال شكلي مثل بعض الدول العربية، لكنها لم تحققه لا بالحوار ولا بالقوة وإنما بإرادة الاستعمار نفسه الذي اختار ممارسة استعماره بطريقة غير طريقة الوجود المباشر. خرج الاستعمار المباشر من هذه الدول لكنها بقيت بلادا مستعمرة. على أية حال، قد يجدي الحوار المستقل عن الوسائل الداعمة، لكنه لن يأتي بالحقوق حسبما تشتهي النفوس.

شهد التاريخ حوارا بين القوى الظالمة والمظلومة لكنه كان حوارا حقيقيا دعمته القوى المظلومة بإرادة عملية صلبة في مواجهة القوى الظالمة. لم يكن مثل هذا الحوار استجدائيا وإنما ندّيا وجد فيه الظالم نفسه أمام خيارين: إما رفع الظلم أو دفع ثمنه.

إنه من سوء الطالع أن نجد على الساحة الفلسطينية من يصر على السير عكس التاريخ أو خلفه ويرى ضرورة توقف المقاومة الفلسطينية. على الرغم من أن المقاومة عبارة عن ظاهرة تاريخية موضوعية لا يستطيع أشخاص وقفها، إلا أن فلسطينيين يحاولون السير في ركب تلك الدول التي تجد في المقاومة تطورا خطيرا على المشروع الصهيوني ويعملون على تصوير المقاومة على أنها سبب معاناة الشعب الفلسطيني.

إنه من المشروع أن نسأل عن فزع الولايات المتحدة وإسرائيل من المقاومة. هل حرصا على نفوس الفلسطينيين وراحتهم أم على راحة الإسرائيليين؟ لا شك بأن المقاومة تؤدي إلى عمليات انتقام إسرائيلية حادة، ولا أظن أن الاحتلال يمكن أن يقف مكتوف الأيدي أمام ضربات المقاومة الفلسطينية. إنه من المتوقع أن تتصاعد وتيرة الانتقام الصهيوني مع تصاعد المقاومة الفلسطينية، وبالتالي من المتوقع أن تزداد معاناة الفلسطينيين اليومية بسبب الإجراءات الإسرائيلية المتنوعة في التضييق على الشعب. هذه هي المقاومة وما يصاحبها من آلام. وسواء استمرت المقاومة أو لم تستمر، لن تتوقف إسرائيل عن مواصلة سياساتها العدوانية ضد الشعب الفلسطيني والمتمثلة بالقتل والاعتقال ومصادرة الأراضي وهدم البيوت، الخ. لقد مرت فترات طويلة من الهدوء على الساحة الفلسطينية دون أن تتوقف الإجراءات الإسرائيلية لحظة واحدة. فهل يستسلم الفلسطينيون للعدوان في انتظار طاولة المفاوضات، أم سيدافعون عن أنفسهم؟

أما فزع الدول المختلفة من المقاومة الفلسطينية ناجم عن قدرة هذه المقاومة على اختراق أهم أسس النظرية الأمنية الإسرائيلية ونقل المعركة إلى التجمعات السكانية اليهودية. لم تعد المعركة دائرة في التجمعات العربية، بل دخلت إلى تل أبيب وحيفا وبئر السبع، مما يجعل من أمن اليهود أمرا يستعصي على الضمان. قامت الهجرة الصهيونية على أسس متعددة منها البحث عن الأمن، وإذا كان لهذا الأمن أن يتبدد فمبرر وجود إسرائيل يتبدد أيضا. ولهذا تفزع الدول المناصرة لإسرائيل وتصرح بأنها حريصة على أمن الفلسطينيين الذين يقتلون كل يوم. الحريص على أمن الفلسطينيين لا يسمح أبدا بكل أو بعض ما تعرض له الشعب الفلسطيني من آلام.

الشعب الفلسطيني يعاني بسبب الاحتلال والسياسات الداخلية الفاشلة، وإذا أراد تخفيف المعاناة فأمامه ما يلي: ليدع التاريخ يعمل حسب قواه الموضوعية والتي بالتأكيد تأكل من يتحداها، وليعمل

على تطوير البرامج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تخفف المعاناة, يستطيع الشعب أن يحمل بعضه بعضا، ويستطيع أن يقتسم اللقمة وأن يقتسم المعاناة. فمن كان قلبه على الشعب الفلسطيني، بإمكانه أن يتأكد أولا من أنه لا يوجد متخم ولا يوجد جائع، وأن يحرص على حسن التوزيع وعلى حسن التوجيه حتى لا يدفع الشباب ثمنا بلا مقابل يدفعه العدو. حياة شبابنا ليست رخيصة ومن المفروض أن يتطور برنامج ثقافي وأمني يصقل همتهم العالية في ردع العدو.

وخلاصة القول أن الحدث التاريخي يحمل في الداخل ضده ومبني في الأصل على التحول الذي لا يخضع لآراء شخصية وإنما لعوامل موضوعية تعمل بمعزل عن التقدير الذاتي للإنسان. أي أن الإرهاب يولد ضده رغما عن أنف كل الدعايات الإعلامية والأوصاف التي يمكن إطلاقها على المناوئين.